نبضُ الجرح

سفيان البوطي – المغرب

بعد قصة حبنا المجيدة، لم أتصور يوما أننا سنفترق. إن اختيار الانفصال عنها، كان اختيارا صعبا، لكن كان هو الاختيار الأوحد.

تسنيم، جميلتي الساحرة. وجهها المكور كقمر نوراني في ليلة بدراء، وشعرها حالك السواد كليل أغسطس. لم تكن تنتظر أن أسلك هذا الطريق، إنها كانت على علم بكوني أخشى المسير دونها. كما كانت تدرك جيدا أن وجودها أمر ضروري لإكمال واجب الحياة. إننا كنا نعتقد فعلا أن الحياة مجرد واجب، يجب علينا تأديته حتى نصل إلى بوابة الموت، البوابة التي ستفتح لنا منزلا خالدا يجمعنا في الحياة الأخرى.

لقد بدأت أرتب لفراقي معها بعد شهر واحد من حادثة السير التي تعرضت لها، إنه لمن الصعب أن تستمر الحياة بيننا كما كانت، عادية سعيدة. فمن الصعب علي أن أقبل بنفسي عالة على تنسيم زوجتي الطيبة، فأن تفقد ساقين بسب تهور طائش ذات سياقة، وأن تصير أمرا واقعا على حبيبة أعشقتك في كل قواك الجسمية، إنه لأمر فيه من القسوة الكثير الكثير.

طيلة هذا الشهر الذي تلى الحادثة، كان همي الوحيد هو أن أتخذ هذا القرار المصيري، أن أنظر إلى كل الكائنات والممكنات، وأصدر حكمي النهائي. ولا تتصور كم تعذبت جراء هذا الأمر، إنني كنت أبيت الليل كله أفكر في حل لهذه المعضلة، وكنت أغرق نفسي في وادٍ من الدموع حَال خلوصي إلى ضرورة الانفصال عن تنسيم. و بت أكره هذا النفس الذي يتصاعد داخلي، وكأنني ألعن هذا القدر الذي ترصدني ذلك اليوم دون رحمة أو شفقة.

الوحدة، والفقدان. كلمتان اكتشفت بعد الحادثة أيضا، أنهما لعنتي الأبدية. حيث على وقعهما ستسير مجريات مستقبلي العليل جدا، ومن خلالهما سأرسم لوحة حياتي. لوحة بها فراغات شاسعة، فراغات لن تُملئها غير تنسيم.

و طيلة هذا الشهر، لم أرَ رقة ودفء كبيرين على محيا إنسان، حتى رأيتهما على وجه حبيبتي تنسيم. فكانت تحاول جاهدة أن تمنع ظهور تأثير هذا التغير الذي أصابني على ملامحها، كما حرصت على أن تتعامل بطريقة طبيعية متقنة مع وضعي الجديد. إنها كانت تخوض حربا ضروسا لكسب رهان نفسيتي الكليمة.

وأمام هذا الصراع النبيل الذي كان قائما بيننا، كنت أحس بتأنيب ضمير كبير، تجاوز الألم الذي عقب البتر. وكان هذا التأنيب يكبر كلما تذكرت أنني أصبحت واقعا مفروضا على زوجة لم يكن لها ذنب في أي مما حدث، غير أنها وهبت حياتها لي، وقررت أن تهبني بعد الحادثة سعادتها كذلك.

أنا اليوم اتخذت قراري الذي لا رجعة فيه، غير أنني واجهت صعابا تتعلق بطريقة تواصلي معها. فظل السؤال الذي يأسرني، ينحصر في كيفية إخبارها بهذا القرار. إنني أعزها لدرجة لا تتصور، لذلك لم أقوَ على مواجهتها.

و أمام طيف هذا العجز الذي أصبح يألف وجهتي، تفطنت لمسألة كبيرة الأهمية. إن لتنسيم عشق مهول للكُتب، وخاصة للروايات. فقد كانت تجد ضالتها فيها، وتعتبرها منفذها الأوحد نحو الحياة التي تعشق. فكل رواية كانت تقرؤها، تدمن عوالمها وتعشق شخوصها. غير أن تلك الرواية التي أهديتها لها عند أول لقاءٍ لنا، أصبحت تدمنها حد الجنون. لم تعد باقي الروايات الأخرى التي صادفتها ذات قراءات تحدث ذلك الوقع على نفسيتها كما كانت. فهي دائما كانت تصارحني بذلك، وتصرخ ضاحكة في وجهي. أنت وتلك الرواية وجهان لعملة واحدة، عملة الإدمان. إدمانك.

ولذلك، وجدت بعد عناء تفكير، أن هذه الرواية هي منفذي لمصارحتها بعد أن كانت منفذي لنيل حبها. فقررت اقتناء نسخة جديدة كالوضع الجديد الذي أصبحت عليه، فاقدا لنصفي الأسفل. وأن أكتب لها رسالة طافقة بعبارات الحب والاعتذار معا، وأن أخبرها عبر لغة الحروف بنبض الجرح الذي غامرني، مترجيا منها إخراجي من حياتها وقبول قرار الانفصال.

و داخل الصفحة الأولى من الرواية، تعمدت أن أكتب لها رسالتي. حتى يتسنى لها قراءتها بروح جديدة غير التي سبقت وأن أقبلت من خلالها على قراءتها،

فكتبت لها:

"بوحٌ لا بد منه"

عزيزتي تنسيم،

من يحب أكثر، يجب أن يضحي أكثر. نعم، هذه فلسفة حبي معك...

لأنني فضلتك على سائر الخلق، فلم أعترض على ذلك حين جاء دور نفسي. لم أترك لها المجال للمفاضلة، اخترتك أنت عليها.

فكرت كثيرا قبل أن أمنحك هذه الرواية، لكن كان قد سبق وأن فكرت في مساعدتك للتخلص مني، لنسياني، لمحو صفحاتي... لقتلي في حياة قلبك.

هذه الأحرف المنثورة بالرواية، لك. هي ترياق شفائك مني... هي طريق الخلاص.

"وهاد"، "وهاج". قصة عشيقين قديرة بأن تمنحك العبر والدروس لاجتياز امتحان التخلص مني، قديرة على أن تنسيك رسوباتك السابقة لاجتيازي.

أختم وأقول، لأنني أحببتك أكثر، سأمنحك الحياة أكثر، وأكثر.

اقرئيها بشغف وعمق، وأبحري فيها حد الغرق... لا تخف، ستعشين حياة جميلة بعد غرقك، حياة لا وجود فيها للماضي...حياة بدوني.

وبعد أن غادرت المنزل قاصدة مكتبها، حرصت على تغليف الرواية بورق أحمر دامٍ، هذا دون أن أغفل تزيينها ببعض الورود التي وضعتها بالجانب على طاولة خشبية قرب سريرها بدقة متناهية. فيما أنا عقدت النية على مغادرة المنزل نحو الخلاص، متوجها حيث لا يمكنني العودة.